أعلام من منطقة زواوة

الأستاذ محمد الصغير بن لعلام*

لا يظنن ظان أن منطقة زواوة لم تضرب بسهم وافر في إثراء الحضارة العربية الإسلامية إلا بعد أن أصبحت بجاية عاصمة للثقافة والمعرفة والحضارة و الإنتاج الفكري في إفريقيا الشمالية بل نحن متأكدون بأن أهل زواوة أقبلوا منذ الفتح على الاغتراف من العلوم الشرعية واللغوية من مصادرها ومظانها ورجالاتها وأنهم تنقلوا إلى المشرق من أجل ذلك وعند تصفحي

---

* أستاذ وصحافي.

لكتاب "*ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك*"[1] وجدته يدرج اسم محمد بن قاسم الزواوي وقال إن محمدا هذاسمع من سحنون وكان معدودا من أصحابه وسمع ابنه أبو القاسم الزواوي من يونس وغيره وأنه كان صالحا وسمع أبو العرب وغيره من محمد وتوفي محمد سنة 280 هـ أما ابنه فقد توفى سنة 304 هـ. هذا ماذكره القاضي عياض في كتابه الأنف الذكر. أما محمد بن الحارث ابن أسد الخشني صاحب "طبقات علماء افريقية" الذي نشره العلامة ابن شنب سنة 1914 م وأعاد ديوان المطبوعات الجامعية نشره سنة 2001 م فيذكر الزواوي الآنف الذكر فيقول: "سمعت من يذكر من شيوخ سحنون الزواوي". أما أبو العرب الذي أخذ عن أبي القاسم الزواوي فهو أبو العرب محمد بن أحمد بن تميم التميمي فهو ثاني اثنين من مؤلفي "طبقات علماء إفريقية" الذي نشره العلامة ابن شنب وله أيضا كتاب في "فضائل مالك" وكتاب في "مناقب سحنون" وقد توفي سنة 303 هـ.

كانت بجاية العاصمة الشرقية للجزائر منذ القرن الخامس الهجري. فقد ورثت المدن والعواصم التي اندثرت من قبل كالقيروان وقلعة بني حماد وبعض العواصم الأندلسية كطليطلة وصقلية أسد ابن الفرات التي سقطت في أيدي النورماند. فكانت بذلك المركز الثقافي الذي يربط الغرب الإسلامي بشرقه.فأصبحت بذلك نورا حضاريا وثقافيا يسطع على المنطقة ويستضيء به حوض المتوسط الغربي بضفتيه الشمالية والجنوبية وكانت ندا لبغداد ودمشق والقاهرة وقرطبة وأشبيلية. فكانت قطبا موجبا يجلب العلماء والدارسين من كل أصقاع العالم.

وقد وصف الشريف التلمساني بجاية فقال: "دخلت بجاية في القرن الثامن فوجدت العلم ينبع من صدور رجالها كالماء الذي ينبع من حيطانها".

---

1. القاضي عياض.

ثم قال وقد سمعنا أن بجاية فيها 500 صبية يحفظن المدونة وأما اللائي يحفظن ابن الحاجب فلا يحصى عددهن إلا الله.أما عبد الله محمد العبدري الحيحي صاحب الرحلة المغربية فيقول في بجاية عندما مر عليها سنة 688 هـ 1289م،: "ثم وصلنا إلى مدينة بجاية مبدأ الإتقان والنهاية وهي مدينة كبيرة حصينة منيعة شهيرة برية بحرية سنية سرية وثيقة البنيان عجيبة الإتقان رفيعة المباني غربية المعاني..."

وقد تكونت في بجاية وما حولها في منطقة زواوة بمفهومها الواسع معاهد ومراكز علمية يتوارث فيها العلم أبا عن جد على مر القرون والعصور. نذكر منها في القبائل الكبرى آيت مليكش آيت ايراثن آيت مقلات فوارسن آيت غبري آيت وراغ وفي القبائل الصغرى وادي بجاية أي ما يعرف حاليا بحوض الصومام وخاصة آيت وغليس آيت عباس وبوجليل وبني ورثلان وبني يعلى وبني عيدل وقد اكتسب كثير من علماء المنطقة شهرة طبقت آفاق العالم الإسلامي آنذاك شرقا وغربا أذكر منها بعض الأسماء كأمثلة فقط.

1. يحي بن معطى بن عبد النور الزواوي ولد سنة 564 هـ في فراوسن كما يثبت ذلك الشيخ الحسين الورتلاني في رحلته المشهورة. قال عنه ياقوت الحموي في كتابه معجم الأدباء: "يحي بن معطي بن عبد النور زين الدين المغربي الزواوي فاضل معاصر إمام في العربية أديب شاعر قدم دمشق فأقام بها زمنا ثم رحل إلى مصر، وتصدر بأمر الملك العادل الأيوبي لإقراء النحو والأدب بالجامع العتيق بالقاهرة" ومن تصانيفه الفصول الخمسون في النحو، والألفية في النحو أيضا وهي التي أشار إليها بن مالك في قولة "فائقة ألفية ابن معطى".

2. أبو الفضل المشدالي محمد بن محمد بن أبي القاسم الزواوي ولد سنة 822 هـ ببجاية. أخذ العلم عن شيوخ بجاية وهم كثر في ذلك الزمان ثم أكمل تعلمه بتلمسان ثم رحل إلى المشرق وكانت إقامته تارة في القاهرة وتارة في دمشق وقد كثر طلابه في كلتي المدينتين وقد ترجمه السخاوي وكان معاصرا له في كتابه "الضوء اللامع في بيان علماء القرن التاسع" ترجمة واسعة قاربت العشر صفحات، من جملة ما قاله : "حصلت بيننا اجتماعات ومحبة ورأيت منه من حدة الذهن وذكاء الخاطر وسرعة الإدراك وقوة الفهم" إلى أن يقول: "ولقي الإمام إبن حجر وفرح به وأعجب به فدانت له المملكة المصرية والأقطار الشامية ودرّس بالأزهر وقد عرض عليه القضاء في القاهرة ودمشق فرفض. أما السيوطي فقال في تعريفه: "اتسعت معارفه وبرز على أقرانه بل على مشايخه وصار كلمة إجماع إلى أن يقول:"هو أحد أذكياء العالم" مات بحلب 866هـ.

3. منصور بن عبد الله أبو علي الزواوي ترجم له ابن الخطيب في الإحاطة فقال:"اشتهر بحسن العهد والصون والطهارة والفقه منقبض عن الناس، مثابر على تعلم العلم وتعليمه، قدم إلى الأندلس سنة 753 هـ وانتصب فيها للتدريس فاستفاد منه كثير من أعلام البلاد ومنهم الإمام أبو إسحاق الشاطبي".

4. أبو عباس الزواوي من مشايخ ابن خلدون. ترجمه ابن مرزوق الجد في كتابه "المسند الصحيح". هو من جملة العلماء الذين كانوا ملازمين لمجلس الملك أبي الحسن المريني". فقال:"ثم لزم الحضرة أخيرا الأستاذ العلامة المشارك أبي العباس الزواوي الذي كان آية من آيات الله عزوجل ولم أر في المشرق

والمغرب نظيرا له".له تصانيف في القراءات والعربية نظما ونثرا. أما لسان الدين بن الخطيب فيقول:"ما رأيت قبله ولا بعده في قطر من الأقطار مثله".

5. عيسى بن مسعود المنقلاتي أبو الروح قال عنه صاحب ذيل الديباج "تفقه في بجاية على أبي يوسف يعقوب الزواوي، ولي القضاء بقابس ودرّس بالأزهر وولي نيابة القضاء بدمشق، شرح صحيح مسلم في 12 جزءا وشرح مختصر ابن الحاجب وشرح المدونة وألف كتابا في التاريخ في 10 مجلدات" مات بالقاهرة سنة 745 هـ.

هذه عينة صغيرة من علماء منطقة الزواوى الذين شرقوا وغربوا وعلموا في أكبر مدارس العلم آنذاك في القاهرة ودمشق والمغرب والأندلس للتدليل على المساهمة القوية التي ساهمت به هذه المنطقة في نشر الحضارة الإسلامية والثقافة العربية.

ولا يفوتني أن أذكر بأن منطقة زواوة هي من أشهر مناطق الغرب الإسلامي في القراءات وحافظت على هذه المكانة إلى الحقبة الحديثة من الزمن، وتُعرف هذه القراءات بقراءات زواوة ويقول الدكتور سعد الله "إن زواوة مقصودة للعلماء للإتقان والبراعة في القراءات" وقد ذكر مثالين على ذلك: الأول: محمد بن مزيان التواتي القاطن بالمغرب والمتوفي سنة 1031هـ، فقد تعلم علوم العربية في المغرب إلى أن لقب بسيبويه، لكنه رحل إلى زواوة ومكث فيها عاما للتمكن من القراءات. أما الثاني: العالم التونسي التركي الأصل الحنفي المذهب أبو العباس أحمد بن برناز، وقد أخذ عن كبار تلامذة الشيخ عبد الرحمان اليلولي في معهد هذا الأخير وقد التقى به. وتوفى في تونس سنة 1138 هـ.

وسأنتقل الآن بعد هذه اللمحة الصغيرة عن علماء زواوة إلى إعطاء نبذة مستفيضة عن شيخين جليلين من علماء المنطقة اكتسبا شهرة ما بعدها من شهرة وسمعة لا تدانيها سمعة وهما الشيخان الشيخ المهدي السكلاوي اليارتني، والشيخ الطاهر الجزائري السمعوني الزواوي.

الشيخ المهدي السكلاوي الزواوي اليارتني، هذا الشيخ الجليل والعلامة الخطير ولد سنة 1200 هـ في إحدى قرى الأربعاء ناث إيراثن، تتلمذ على يد الشيخ محمد الصالح بن سليمان العيسوي المشدالي الزواوي الذي أجيز في تونس من جامع الزيتونة، ولما عاد إلى وطنه دعاه الشيخ محمد بن عبد الرحمان الشريف الأزهري الجرجري ليلتحق بالتدريس في معهده بآيت إسماعيل وبقي فيه. وفي هذا المعهد تتلمذ عنه شيخنا كما تتلمذ في نفس المعهد على الشيخ بن عيسى وهو أيضا تلميذ للشيخ محمد بن عبد الرحمان الآنف الذكر وهو الذي خلفه شيخه على رأس الطريقة الرحمانية، وقد لمس الشيخ بن عيسى في تلميذه ملامح الذكاء والفطنة والعلم الواسع، والسلوك الفاضل ومحبة لإخوانه فاستخلفه على رأس الطريقة الرحمانية وهو لما يزل على قيد الحياة فبقي الشيخ في المعهد أستاذا وشيخا للطريقة بعد أن كان طالبا.

ولما نادى المنادى أن حي على الجهاد، عندما بدأ Bugeaud في التحرش بالمنطقة ومحاولة احتلالها سنة 1842، لبى الشيخ النداء بعد أن دعاه خليفة الأمير عبد القادر أحمد الكيب بن سالم في المنطقة هو والشيخ عبد القادر المبارك الدلسي لجمع الكلمة وتوحيد الصفوف والوقوف في وجه العدو وغرس روح الجهاد في سبيل الله والوطن وإصلاح ذات البين بين صفوف سكان المنطقة.

فترك الشيخ التدريس وتفرغ للجهاد صحبة خليفة الأمير عبد القادر في المنطقة وهو آخر خلفاء الأمير الذين بقوا في الميدان بعد أن قضى Bugeaud على الآخرين بصفتيه الحاكم العام وقائد الجيوش الاستعمارية. وقد شارك الشيخ في إدارة المعارك مع الخليفة ونجح الشيخ أيما نجاح في مهمته الجديدة وتمكنت المنطقة من صد العدوان لسنوات عديدة لكن فرنسا تمكنت في الأخير من احتلال ما يسمى بالقبائل السفلى La Basse Kabylie فرحل الشيخ مع خليفة الأمير السيد أحمد الطيب بن سالم على ظهر باخرة أعدت للخليفة بناء على الاتفاق الذي وقعه مع فرنسا، ولكن الشيخ قبل أن يرحل قام بثلاثة أشياء:

أولا: إسناد القيادة الجهادية إلى شخصيتين عظيمتين بارزتين وهما المجاهد المعروف بالشريف بوبغلة الذي استشهد في ضواحي تازمالت 1856، والمجاهدة لالا فاطمة نسومر التي تولت بأمر منه قيادة المقاومة في المنطقة، وهي تلميذة له تكونت في مدرسة العلم والجهاد التي أسسها هذا الشيخ، أذاقت الجيوش الفرنسية مرارة الهزيمة في عدة معارك وأخرت اجتياح الجيوش الفرنسية 10 سنوات من 1847 إلى 1857 في حملة لم يسبق لها مثيل منذ دخول فرنسا إلى الجزائر، حملة قادها 7 سبعة جنرالات تحت قيادة الماريشال رندو Randon وقد اعترف الجيش الفرنسي أنه لقي مقاومة لم يسبق لها مثيل منذ احتلاله الجزائر ولما بحث عن الأسباب وجد أن لالا فاطمة نسومر ابتكرت أسلوبا جديدا قوامه فرقة المسبلين وقد قال أحد قادة الجيش الفرنسي في تقاريره لرؤسائه بأن شعبا يوجد فيه مثل هذا النوع من المقاتلين ينبغي أن يُقرأ له ألف حساب.

ثانيا: نصّب على رأس الطريقة الرحمانية تلميذه الشيخ محند أمزيان أحداد "الشيخ الحداد" صاحب ثورة 1871، لما يعرفه عنه من علم غزير وروح سامية جهادية وطاعة الله وتفان في خدمة الإخوان والوطن،

و لم يخيب التلميذ شيخه فكان خير خلف لخير سلف، وأشعلها ثورة عارمة بعد رحيل شيخه وهو في الثمانين من عمره كادت أن تحرق الاستعمار الفرنسي وترميه في البحر لولا المكر والخديعة والخيانة وقلة التجهيز.

ثالثا: أصدر قبل رحيله فتوى هامة و خطيرة في نفس الوقت تنص على عدم جواز الإقامة تحت حكم الكافر لمن استطاع إلى ذلك سبيلا استنادا لقوله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ، قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ، قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا. إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ**﴾[1]...

وقد صحبه في هجرته مجموعة كبيرة من الأفراد وثلة من العلماء نذكر منهم اثنين الشيخ الصالح بن بلقاسم السمعوني الذي كان عالما جليلا قريبا من شيخه له عدة تآليف في الفقه والتاريخ وولي القضاء المالكي في دمشق، والشيخ عبد القادر المبارك الدلسي اللغوي من أحفاده د.محمد المبارك الأستاذ الكبير في الفقه واللغة والعلوم الشرعية في جامعة دمشق في الخمسينات والستينات من القرن الماضي، وقد شارك عدة مرات في ملتقيات الفكر الإسلامي التي كانت تعقد ببلادنا في السبعينات من القرن الماضي ود. مازن مبارك أستاذ فقه اللغة في جامعة دمشق وقد درست عليه في الستينات من القرن الماضي.

ونجد ترجمة الشيخ المهدي في كتاب "حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر" لصاحبه الشيخ عبد الرزاق البيطار الدمشقي ومما قاله عنه: وقد أخذ عنه كبراء دمشق وعلماؤها وحكامها وفضلاؤها وأخذ عنه الوزير الكبير والمشير العظيم الخطير صاحب الدولة أحمد عزت باشا والي دمشق وقال "إن الشيخ توفي سنة 1278 ولما وضع نعشه على

---

1. سورة النساء الآيتين 97 ـ 98.

الأعناق ازدحم الناس عليه حتى صارت كالبساط تحته وانسدّت الطرقات فلم يجد الإنسان طريقا للسلوك وصلت عليه آلاف من الناس في جامع بني أمية ودفن في قاسيون في مقبرة ذى الكفل"، ويقول الشيخ المهدي بوعبدلي رحمه الله "هذه الحظوة لم ينلها الأمير عبد القادر مع غزارة علمه وسمعته في الجهاد".

ويستوقفنا في هذه السطور التي أخذناها عن البيطار قوله أخذ عنه... إلخ فإن كثيرا من الباحثين يشتطون ويبالغون في وصف هذا العهد بالجمود الفكري والانحطاط الثقافي والضحالة العلمية ..الخ. وإلا فكيف لشيخنا رحمه الله أن يأخذ عنه علماء وفضلاء وكبراء دمشق ويكسب ذلك التقدير ويمتلك قلوب أهل الشام وهو الذي لم يغادر منطقته من قبل وكل ما عنده من العلم والمعرفة والدراية أخذه وتعلمه عن شيوخ المنطقة، وإن دل ذلك على شيء فإنما يدل على الشأن الذي بلغته الثقافة العربية الإسلامية في بلادنا فرحم الله شيخنا.

الشيخ الطاهر الجزائري السمعوني الزواوي

يقول عنه الإمام عبد الحميد بن باديس في مجلة الشهاب "هذا الأستاذ العظيم من أبناء الجزائر الكثيرين الذين ظهر نبوغهم في غير وطنهم ودلوا على أن الطينة الجزائرية طينة علم وذكاء إذا واتتها الظروف"

أما دائرة المعارف العربية الميسرة التي صدرت في القاهرة 1965 فتقول "طاهر جزائري، عالم لغوي عربي ولد بدمشق و تتلمذ على كبار أشياخها ومارس التعليم زمنا ثم انتقل إلى القاهرة حيث أقام بضع عشرة سنة في أثناء الحكم التركي في الشام وعاد قبيل وفاته إلى دمشق مديرا لدار الكتب الظاهرية يعدّ من علماء الإصلاح اللغوي والديني،كان واسع العلم بالمكتبة العربية ومخطوطاتها له رسائل في علوم اللغة وتفسير كبير".

أما تلميذه العالم والمحقق المصري الشهير محب الدين الخطيب فيقول في مقال نشره في إحدى مجلاته ونقلته مجلة الشهاب في عدد جويلية 1937 بعنوان "شيخي" فيقول "هو الذي ربى عقلي وهو الذي حبب إلي هذا الاتجاه الفكري منذ كنت طفلا حتى صرت رجلا ولا أعرف مؤلفا ولا حامل قلم نشأ بالشام وقد كانت له صلة بهذا المربي الأعظم واستفاد من عقله وسعة فضله إما مباشرة أو بواسطة الذين استفادوا منه، وكل الذين جاهدوا هناك لأجل الحرية وفي سبيل المعارف ولإحياء علوم السلف ولإعادة مجد العروبة والإسلام، إنما كانوا من إخوانه وهو واسطة عقدهم ورأس مجالسهم ومن طبقة تلاميذه.وهو مضرب الأمثال عندهم في كمال عقله وسعة اطلاعه التي لا حد لها "إلى أن يقول" وأهم كتب السلف النافعة التي نشرها الناشرون إنما نشروها بإشارته وتحريضه وأن كل من نشرليس إلا قطرة في بحر الخير الذي يتدفق من صدر هذا العالم الذي كانت الدنيا لا تساوي عنده جناح بعوضة و ليس فيها من أمنية إلا أن يرى الإسلام يعود كما كان في أيام القوة والعدل والعلم وتقوى الله عز وجل".

فمن هو هذا الشيخ؟

إنه الشيخ الطاهر بن صالح بن موهوب السمعوني الزواوي الجزائري، كان والده من تلامذة الشيخ المهدي السكلاوي وهاجر معه إلى الشام بعد سقوط منطقة القبائل الكبرى في يد الاستعمار الفرنسي 1847 وقد أخذ الشيخ صالح المذكور العلم عن شيخه المهدي السكلاوي وبعد وفاة هذا الأخير حل محله في قيادة الإخوة المهاجرين وأصبح هو شيخها وقائدها ومفتيها وولد له ولد سماه شيخه المهدي السكلاوي الطاهر".

بدأ الولد يأخذ العلم عن والده ثم تتلمذ لشيخين من أعظم علماء الشام آنذاك وهما: أولا: الشيخ عبد الرحمن البوسناني وهو مربي شديد الشكيمة كما يصفه بذلك الأستاذ محمد كرد علي. ثم ثانيا: عالم الشام وشيخها آنذاك عبد الغني الميداني الغنيمي وكان هذا الشيخ ذا عقل كبير وعلم واسع و نظر شامل وإحاطة بالعلوم الإسلامية والعربية ،فطبع الفتى بطابعه و أخذ منه الرجوع إلى المنابع الصافية للشريعة الإسلامية فكانت تلك أول خطوة لشيخنا نحو السلفية، كما أخذ عنه محاربة المشعوذين والدجالين وأدعياء العلم والفقه وما كان أكثرهم آنذاك.

و لم تتوقف إرادة الشيخ عن العلوم التقليدية المعروفة أي الدينية واللغوية، بل اتجه إلى تعلم العلوم الحديثة كالرياضيات والعلوم الطبيعية وعلوم الفلك بل حتى علم الآثار يأخذها أنى وجدها أينما وجدها فكان من شيمته أنه إذا سمع أو رأى من هو أعلم منه في مادة ما أخذ عنه ما عنده، دون أي حرج،و المهم عنده أن يستفيد من غيره ويأخذ عنه ما عنده.

وما بلغ سن الثلاثين حتى أصبح علامة محيطا بكل علوم زمانه التقليدية منها والجديدة وأصبح موسوعة في اللغات،فزيادة عن لغتيه الأصليتين الأمازيغية والعربية أتقن الفارسية والتركية ونَظَمَ الشعر بالفارسية والعربية وتعلم الفرنسية والسريانية والحبشية،وهو في هذا يذكرني بابن منطقته المرحوم مولود قاسم.

وكان شيخنا مغرما بالكتب منذ طفولته وكان يشتريها بما يجود عليه والده من المصروف اليومي ويأتي على قراءة هذه الكتب بنهم شديد وبعد قراءتها يخبئها وقد قدر ما جمع بهذه الطريقة حوالي ستة آلاف سِفْرٍ وجزءٍ كبير من أندر المخطوطات ومن مميزات شيخنا ذاكرته العجَيبةً يقولُ معاصروه عنه " إنه ما سمع شيئا أو قرأه إلا اختزنه في ذاكرته فهو قليل الرجوع إلى ما قرأه من قبل وإنما همّه أن يقرأ جديدا.

وقد كان هذا الشيخ بعد أن اشتد عوده وحوى في صدره ما شاء الله من العلوم والفنون المختلفة الموضوعات والمتعددة المشارب والمتنوعة المصادر،وكان هم هذا الشيخ هو نشر التعليم وإحياء ماضي هذه الأمة،فكان من المؤسسين لأول جمعية خيرية تعليمية شارك في تأسيسها مجموعة من علماء الشام و أعيانها وكان من أكثر الناشطين في هذه الجمعية التي تحولت فيما بعد إلى ديوان المعارف الذي يوازي وزارة المعارف. فأخذ هذا الديوان ينشئ المدارس في مختلف المستويات فكان هو المؤسس وهو المشرف وهو المفتش باختصار كان كل شيء مربوط به، وكلما كثر النشاط وتعدد،زادت خبرات الشيخ وتوسعت مداركه وتحسنت ملكاته وكان لا يكتفي بإعداد البرامج والإشراف على تطبيقها بل تعدى ذلك إلى تحفيز الآباء وحملهم على إرسال أبنائهم إلى المدارس.

وفي هذه الفترة أنشأ شيخنا دار الكتب الظاهرية بدمشق وجمع فيها ما تفرق من المخطوطات في عشر مدارس في الشام، ثم توسع في جمع الكتب خارج دمشق إلى أن أصبحت هذه المكتبة من أهم المكتبات العربية إن لم تكن أهمها على الإطلاق، ولم يقابل مشروعهُ هذا بالاستحسان بل حورب محاربة شديدة من أدعياء العلم وسارقي الكتب وآكلي الأوقاف محاربة شديدة بلغت درجة التهديد بالقتل.

ولكن ما زاده ذلك إلا إصرارا على المضيِّ في الطريق التي رسمها والعمل على إكمال المشروع فما ثنوه عن عزمه وما صرفوه عن بغيته، بل ذهب إلى أبعد من كل ما توقعوه، فأنشأ مكتبة ثانية في القدس الشريف سماها المكتبة الخالدية نسبة إلى آل الخالدي وهي أسرة عريقة في القدس معروفة بعلمها وقد أغنوها بخزائن كتبهم.

وقد أمده عمله في تأسيس المكتبتين بروافد من العلوم في مختلف الميادين وقد سبق أن ذكرنا بأنّ شيخنا يتمتع بذاكرة فريدة، فأصبح دائرة معارف بالحق، فوعى صدره مختلف العلوم الشرعية وتاريخ الأمم والملل والنحل وتاريخ الإسلام ورجاله، كما كان محاورا فذا ومجادلا برعا ومناظرا لا مثيل له، كما كان إماما في العربية وآدابها وشاعرا لا بأس به وينظم بالفارسية كما ينظم بالعربية ويقول تلميذه محمد كرد علي "إن شعره أجود من شعر الفقهاء و أقل جودة من شعر الشعراء"

وكان شيخنا مجتهدا سلفيا لم يتقيد بمذهب واحد، يأخذ الأحكام من أصول الشريعة ويحسن الظن بجميع المذاهب ويعادي كل من يحاول أن ينال من أحد الأئمة ونجده في بعض الأحيان يؤيد أهل الاعتزال والشيعة والإباضية في مسائل تفردوا فيها ،وكان الشيخ يلقي باللائمة على الفقهاء الجامدين المتعصبين والذين يحاربون الحكمة والعلوم العصرية، ويرى فيهم حَجَرَ عثرة في النهوض بالأمة الإسلامية وذلك ما نجده في برقية التعزية التي بعث بها أحد أصدقائه في مصر وهو العلامة أحمد زكي باشا إذ يقول "كنت أرى فيه الأثر الباقي والمثل الحي والصورة الناطقة لما كان عليه سلفنا الصالح من حيث الجمع بين الرواية و الدراية في كل المعارف الإسلامية وتوسيع نطاقها بقبول ما تجدد عند الأمم". فهو لم يكن جامدا متعصبا حتى مع غير المسلمين، ومن أهم أصدقائه المستشرق اليهودي جولد زير والمطران السرياني يوسف داود،كما كانت له صلة باليهود ومختلف الطوائف المسيحية وكان يقول Goldzhier "هم أقرب الناس إلينا،يؤمنون بالله واليوم الآخر مثلنا" وهذا القول هو الذي ذهب إليه السيد قطب -رحمه الله- في كتابه "في ظلال القرآن" عند تفسيره لقوله تعالى في سورة آل عمران ﴿**قُلْ يَا أَهْلَ الكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُم**...﴾[1] الخ من الآية الكريمة.

---

1. سورة آل عمران، الآية 64.

قلنا آنفا إن شيخنا حورب حربا شعواء من طرف بعض علماء عصره الذين أرهقتهم أفكاره وأتعبهم سلوكه معهم وسعيه الحثيث لإحياء علوم الشريعة والأخذ بعلوم الدنيا ومالأهم بعض الساسة والحكام، لأنه لم يخف كرهه لحكم العثمانيين والاستعمار عامة، وهو يسمي الحكم العثماني بالاستعمار، و قال "إن استيلاء الترك على بلاد العرب أخّرها وأنزل من قيمتها وغيّر من أخلاقها"، فاضطر إلى الهجرة إلى مصر سنة 1907، مكث فيها إلى غاية سنة 1920، و قد بث أفكاره في مصر وكوّن مجموعة من التلاميذ الذين أخذوا بمذهبه ومنهم العلامة الشيخ محب الدين الخطيب الذي أسلفنا رأيه في الشيخ، ومن أصدقائه في مصر الإمام محمد عبده، وأحمد تيمور باشا، وأحمد الحسيني وأحمد زكي باشا والشيخ علي يوسف و غيرهم، وفي هذه الفترة التي قضاها في مصر زار بلده الأصلي الجزائر سنة 1912، و نزل ضيفا على الشيخ محمد السعيد بن زكري المفتي المالكي في الجزائر.

ومن مميزات الشيخ عزة النفس، إذ إنه لم يمد يده لأحد طوال حياته و لم يأخذ فلسا من ملك أو حاكم،أو غني وفي هذا القول يقول أحمد الجندي رئيس دائرة في المجمع العلمي العربي بدمشق في محاضرة ألقاها سنة 1969: كان هذا الرجل "يحب العرب ويعطف على قضيتهم ويسعى إلى تقدمهم وتعليمهم وأبرز ما كان عند الشيخ حافظته العجيبة" ثم قال "لجأ الشيخ إلى حافظته فاتخذها وسيلة إلى العيش عيش الكفاف يستعين بها على الحياة فكان يشتري المخطوطات بأثمان زهيدة ويبيعها فيربح بها دريهمات تساعده على الإنفاق. وكانت نفسه تأبى أن يمد لأحد مهما تكن منزلته حتى كان العظماء في زمنه يرهبون أن يعرضوا عليه العون المادي فإذا فعلوا كان ذلك إيذانا بالفرقة التي لا لقاء بعدها" أما الأستاذ محمد كرد علي فيقول "لا أكون مبالغا إذا قلت إن عزة النفس هو

الخلق الذي ندر في علماء المسلمين لعهدنا مما تفرد به ففيه إباء الملك والزهاد والعباد، لم يظاهر ظالما لغنم يصيبه ولم يصاحب غنيا للانتفاع بغناه، وكان يؤثر الخمول وعدم الظهور ولا تهمه الشهرة استفاضت أم لم تستفض" وشيخنا لم يتخذ زوجا ولا أولادا فعمره كله أولا وثانيا وثالثا للعلم والتعلم، ولاشيء يشغله عن ذلك، أما موضوع الهندام فحدّث عنه ولا حرج فقد سمعت من بعض كبار الجزائريين في الشام الذين عايشوه وجاوروه أن هيأته تنفّر منه في بعض الأحيان حتى يظن به أنه أحد الدروايش، كما كان مولعا بالتدخين ولعا شديدا، وكان مغرما بالسباحة حتى إن له مسبحا خاصا به في دمشق ويعشق المشي فهو يتنقل من قرية إلى أخرى ويقطع عشرات الكيلومترات يوميا.

مؤلفاته

يقول الأستاذ كرد علي إن مؤلفات الشيخ لا تتناسب كل التناسب مع علمه الواسع لأن بعضها مما ألفه في صباه لنفع المدارس ومن مؤلفاته المطبوعة:

1. "الجواهر الكلامية في العقائد الإسلامية"
2. "منية الأذكياء في قصص الأنبياء"
3. "مد الراحة إلى أخذ المساحة"
4. "مدخل الطلاب إلى فن الحساب"
5. "الفوائد الجسام في معرفة خواص الأجسام"

ألف في النحو والبديع والبيان وله تفسير كبير في أربع مجلدات محفوظ في المكتبة الظاهرية،ومقدمتين لهذا التفسير الصغرى والكبرى، ومعجم ضاع أكثره كما اختصر كثيرا من الكتب مثل أدب الكاتب لابن قتيبة وأمثال

الميداني، والبيان والتبيين للجاحظ،وكذلك مخطوط في السيرة النبوية سماه" الإلمام بأصول سيرة النبي عليه الصلاة والسلام" و"مقاصد الشرع"..إلخ، من التعاليق والحواشي التي سجلها على كثير من المخطوطات التي قرأها.

وفاته

بعد أن استحكم فيه المرض في مصر،قفل راجعا إلى الشام وقد تغير الحكم وانتهى عهد الخلافة العثمانية، فعين مديرا لدار الكتب التي أنشأها،وعضوا في المجمع العلمي العربي. وقد اشتد به المرض وبرح به الألم إلى درجة أنه طلب من طبيبه أن يعطيه دواء ليميته في الحال وقال إن الشرع يبيح ذلك، فما كان من الطبيب إلا أن أطلق عنان رجليه وحلف أن لا يعود لتمريض الشيخ.

ووافته في جانفي 1920، ودفن في مقبره ذى الكفل في جبل قاسيون حيث والده وشيخ والده وغالبية الجزائريين الذين هاجروا إلى الشام.

فرحم الله شيخنا وجزاه عن الإسلام والعروبة خير جزاء.